الفصل الخامس عشر:
في فضائل حسن الخلق

وهو: خُلق فاضل عظيم النفع.

أساسه: الصبر، والحلم، والرغبة فِي مكارم الأخلاق.

وآثاره: العفو، والصفح عن المسيئين، وإيصال المنافع إِلَى الخلق أجْمَعين.

فهو: احتمال الجنايات، والعفو عن الزلات، ومقابلة السيئات بالحسنات.

وقد جَمع الله ذلك فِي آية واحدة، وهي قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

أي: خذ ما عفا وصفا لك من أخلاق الناس، واغتنم ما حصل منها، وغُضَّ النظر عما تعذَّر تَحصيله منهم، وعن نقصها وكدرها، ومعنَى ذلك: أن تشكر الناس على ما جاء منهم من الخير والإحسان، وما سَمحت به طباعهم من الْخُلُق الطيب، ولا تطلب منهم، ولا تطالبهم بِما زاد عما حصل، ولو كان لازمًا لَهم، فإنك بذلك تستريح وترِيْحهم.

أما من كان يريد من الناس أن يكونوا كاملين مكملين لكل ما يَجب ويُستحب، وإذا أخلُّوا بشيء من ذلك عاتبهم، وأهدر ما جاء منهم من الخير والإحسان؛ فهو عن حسن الخلق بِمعزل، ولا يزال معهم فِي نزاع ولجاج وعتاب.

وإنَّما الحازم من يوطِّن نفسه على تقصير المقصرين، ونقصان الناقصين، وقد

أرشد النَّبِي ﷺ إلَى هذا الخلق الفاضل فِي معاملة الزوج لزوجته، فقال: «**لا يفرك مؤمن مؤمنة: إن كره منها خلقًا، رضي منها خلقًا آخر**»(١).

فأمر بالإغضاء عما فيها من العيوب، وأن يكون نظره إلَى ما فيها من الْمَحاسن والمنافع، ويَجعل هذا شفيعًا لِهذا؛ لأنه بذلك تدوم الزوجية، وتتم الصحبة الطيبة والصفاء، ويقل النِّزاع والخصام.

وقس على هذا الذي ذكره ﷺ: جَميع المعاملات والحقوق، فالمعاملة بين الوالدين وأولادهم إذا كانت على هذا الوصف؛ حصل البر وأُديت الحقوق، إذا وطَّن الوالد نفسه على شكر ما حصل من ولده من البر، ولو قليلاً، وعفا عن تقصيره، ازداد البر، وحصل للوالدين راحة.

فرحم الله من أعان أولاده على بره.

وكذلك الأولاد، عليهم القيام ببر والديهم، وأن يوطِّنوا أنفسهم على ما ينالهم من الوالدين من سوء الخلق وشراسته، وسيئ الأقوال والأفعال الَّتِي تصدر منهم، ليوطِّنوا أنفسهم على احتمالِها، وأن يشكروهم على ما نالَهم منهم من الإحسان، مهما كان.

فهذا من البر والصلة الَّتِي لا يوفَّق لَها إلا ذو حظ عظيم.

وكذلك حقوق الأصحاب، والجيران، والمعاملين، ينبغي أن يسلك معهم هذا المسلك: القناعة بِما جاء منهم، وتَحمُّل ما لا يوافق الإنسان من قول، أو فعل، أو معاملة، فبذلك تدوم الصحبة وتقوى.

أما من كان إذا جاءه من أصحابه، أو معامليه ونَحوهم سيئة واحدة، أهدر بِها ما سبقها من الْمَحاسن؛ فهذا من أعظم الحمق، وقلة الوفاء، وعدم الإنصاف.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٦٩) من حديث أبِي هريرة رضي الله عنه.

ومن كان بهذا الوصف فهو أبعد الناس من حسن الخلق.

والمَقصود: أن المعاملة بين المختلطين والمرتبطين بحق من الحقوق:

إذا بُنيت على قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾. فوطَّن العبد نفسه على أخذ المنافع، والصفح عن ضدها؛ أوصلت صاحبها إِلَى كل خير، وسلم بِها من شرور كثيرة.

وإذا بُنيت على الاستقصاء، وطلب جميع الحق مستوفى؛ حصل النقص والخلل.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾. أي: إذا جهل أحد عليك بقول، أو فعل، فأعرض عن مقابلته بِجهله، وقابله بِما تقابله به إذا كان مُحسنًا فتكسب السلامة والأجر، وحسن الذكر، والاتصاف بِمكارم الأخلاق وأعاليها.

وكل من عصى الله، أو قصَّر فِي حقه، أو تعدى على أحد، فهو جاهل؛ سواء كان متعمدًا أو غير متعمد.

وذلك أن العلم الذي يعمل الإنسان به هو العلم النافع، والذي لا يعمل به جهل وضلال.

وقد تعوَّذ ﷺ من علم لا ينفع.

وأما قوله تعالى فِي هذه الآية: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾. أي: ليكن أمرك لغيرك موصوفًا بوصفين:

أحدهُما: أن يكون برفق وحكمة، وأقرب طريق يوصل إِلَى هذا المقصود، وذلك يَختلف باختلاف العرف.

والثانِي: ليكن مأمورك الذي تأمر به من الأمور الْمَحبوبة شرعًا وعرفًا، وهو الأمر بالواجبات، والمستحبات من العقائد والأخلاق، والأعمال المتعلقة بِحقوق الله، وحقوق خلقه.

فمن قام بِهذه الأمور؛ فقد اتصف بِحسن الخلق، الذي قال فيه النَّبِي ﷺ: «**إن**

العبد ليبلغ بِحسن خلقه، درجة الصائم القائم»[١].

وأعظم ما يُدخل الناس الجنة: تقوى الله، وحسن الخلق.

وقد فسره ﷺ بِما يوافق هذه الآية، فِي قوله لمعاذ وغيره: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تَمحها، وخالق الناس بِخلق حسن**»[٢].

حسن الخلق، ومكارم الأخلاق تُحبب العبد إلَى أعدائه، وسوء الخلق ينفر عنه أولاده وأصدقاءه.

ومن مزايا حسن الْخُلق: أن صاحبه يتمكن من إرضاء الناس على اختلاف طبقاتِهم، كل من جالسه وخالطه أحبه، لا يَمله الجليس.

قال ﷺ: «**إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم؛ ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه، وحسن الْخُلق**»[٣].

صاحب الخلق الحسن، يسهل عليه إدراك المطالب، وتلين له برفقه وتَحببه إلَى الخلق المصاعب.

كم فات سيئ الأخلاق من مطلوب، وكم جلب عليه الحمق من شر مرهوب!

كل أحد يود الاتصاف بِحسن الخلق، لِما يشاهده من ثَمراته الجليلة، ولكن لا يدركه إلا أهل الهمم العالية النبيلة.

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق، وجنبنا مساوئها.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨)، وأحْمَد (٢٤٤٩٢) من حديث عائشة ﵂، وصححه الألبانِي فِي صحيح الجامع (١٩٣٢).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وأحْمَد (٢٠٨٤٧) من حديث أبِي ذر ﵁، وحسَّنه الألبانِي فِي صحيح الجامع (٩٧).

(٣) أخرجه الحاكم فِي المستدرك (١/٢١٢) من حديث أبِي هريرة ﵁، وقال الألبانِي فِي صحيح الترغيب (٢٦٦١): حسن لغيره.